حوار جديد

بقلم عبد الله ريط

المثقفون (*) من ابناء العالم المتخلف عندما يدعون الى حوار كهذا مع المثقفين من ابناء العالم المتقدم ـ لا يشعرون بحرج لانهم ينتمون الى عالم متخلف ، بل يشعرون بتعقد جديد ومصاعب اضافية تنضم الى ما يعانون ، في بلادهم من صعوبات في الحوار مع مجتمعهم، بل مع انفسهم ، كل واحد منهم في هذا الحوار يتساءل ماذا يفعل مع لغته المحنطة ، وثقافته التي فقدت حيويتها ، ومجتمعه المتخلف ، هل يحطم او يرمم ؟ هل يبني على فراغ ام على جدار قد انحنى تحت وطأة القرون ؟ يبدأ من الصفر ام من اللانهاية ؟ يعود الى الماضي ام يبدأ من الحاضر ؟ يلتفت الى الوراء ام يقفز الى الامام في المجهول وحده ؟.

اننا نعيش في متناقضات مع انفسنا ومع مجتمعنا ، متناقضات بين ماضينا ومستقبلنا ، بين حياتنا المادية المصطنعة وحياتنا الفكرية المذبذبة .

نعيش في مجتمع ثقل علينا عبء حمله من القرون البدائية الى عصر التكنولوجية .

نعيش في خصومة بين المؤمن بالقوانين الطبيعية في نزول المطر، وبين المؤمن بارادة الله التي تفعل وحدها كل شيء . خصومة بين قوانين المرور التي نستمدها من عندكم ونسوق بها السيارة في الشارع، وبين طبيعة البدوي الذي لا يعترف لاحد بالمرور قبله . خصومة عندنا بين من يقول تنتهي حريتك حيث تبدأ حرية غيرك ، ومن يقول : الشيء الذي ابصرته فهو لك ، وما لم تبصره فلك فيه النصف . بين طبيعة رجل يشتري لزوجته اخر مودة من اللباس ، ويمنعها من مصاحبته الى حفلة ساهرة . خصومة بين ما اخذناه عنكم من « اشياء » نكدسها لان اخذها سهل نشتريها فقط ونستعملها ، ولكنها ليست من انتاج حضارتنا ـ وبين ما يشكل حقيقة الحضارة ، وهو الانسان الذي يعيش بعقله لا بالاشياء المكدسة .

هذه الخصومة نشأت في عصرنا هذا من ان طبيعة الاتصال بين تخلفنا وتقدمكم مرت عن طريق علاقة بين تجارنا وتجاركم ، كان فيها العقل متغيبا ، وبين سياسيينا وسياسييكم لم يحضر فيها من الفكر الا عنصر الحيلة ، وبين عسكرينا وعسكرييكم الذين كان الجسر الوحيد الذي اقاموه بينهم للقاء ، هو جسر الموت ، وبين رجال الدين الذين كان كل فريق منهم يعتقد انه وحده المؤمن ، وان الاخر كافر ، لقد ثار عليهم ابو بكر الرازي منذ القرن العاشر الميلادي (وهو ذلك الفيلسوف الذي ترجمت اكثر كتبه الى اللاتينية هنا في ايطاليا ـ البندقية وصقلية ـ ثار على الاتجاهات الاستغلالية للاديان كلها ، لانها عنده « اخرت الناس في سلوكهم وعاداتهم السيئة ، وزادت من ضيق عقولهم ، بالاضافة الى ماسببته بينهم من حروب وعداوات ، وما سببته من عداوة رجال الدين للفلسفة والفلاسفة ، في حين ان الفلاسفة افادوا الانسانية اكثر من الانبياء » « احمد امين ـ ظهر الاسلام . ج٢ ـ ص : ١٨٦ » .

وبعد الرازي اضيف الى العداوات الدينية ، عداوات الاقتصاد والحربية ، والسياسية والتي جعلت لخدمتهما . كان الاتصال الوحيد الذي لم يقع الا نادرا في علاقاتنا الحديثة ، هو الاتصال بين المثقفين، هؤلاء ليست بينهم ، على الاقل من حيث المبدأ ، عداوة تسبرها الاطماع التجارية او الحيلة السياسية ، او التدمير العسكري ، او الحقد الديني ، انهم يؤمنون بقيمة وحيدة فوق كل القيم المالية والسياسية والعسكرية والدينية ، وهي كرامة الانسان ورقيه .

واليوم وفي هذا الحوار الجديد بيننا وبينكم ، ماذا نمثل كلنا ، نحن وانتم ؟ هل نمثل مجتمعاتنا ؟ هل نمثل انفسنا فقط ؟ هل نمثل حضارة ؟ اما فيما يخص حضارتنا نحن فقد خرجنا منها .وحضارتكم لم ندخلها بعد . لان السباق بيننا وبينكم كالسباق بين اخيل والسلحفاة عند زينون في ابطأ الحركة .

لا نمثل مجتمعنا لاننا اقلية فيه ، نحن وحدات ضائعة في خضم لا يكاد يشعر بنا ، نحاول ان نعيش معكم ، ولكننا لا نريد ايضا ان ننقطع عن مجتمعنا . ومجتمعنا ما يزال يعيش مع اجداده وهو يجهلهم وهو دون مستواهم ، بما تركوا له من مسكن وعادات وفكر. هم يؤثرون فيه لانهم يعيشون معه حياته اليومية ، ولا يستمع الى اقوالنا لاننا نرمي بها اليه ونحن مارون في سيارتنا امام كوخه . اننا لم نستطع ان نلحقكم انتم ، ولا ان نبقى مع مجتمعنا ، حيث هو يقعد به الجوع . فيشعر بعضنا بالحاجة الى الثورة ونحن مختنقون في ملابسكم لانها لم تخلق لحرارة الشمس في صحرائنا .

اما السعداء منا فيخلقون جنة لانفسهم من اوراق البلاستيك ـ يقيمونها في الرمال ليشعروا انهم معكم في اوروبا . ويلذ لهم ان يضيفوا الى لهيب الصحراء لهيب الخمر ، لانكم تشربونها في البرد ،

(*) كلمة قدمت في ملتقى « الثقافة العربية وثقافة البحر الابيض المتوسط » الذي اقامه معهد « ايبالو » بين ١٤ و١٦ كانون الاول ١٩٧٢ في مدينة فلورنسا بايطاليا .

ويرقصون في الخرائب والغبار لانكم نرقصون في القصور وعلى ضفاف الانهار . انتم اذا حذفتم من وجودنا كل ما هو انتم ، لا يبقى شيء نتحاورون معه . ولكن انتم ، ماذا تمثلون في مجتمعكم ؟.
هل تمثلون انسان ما بعد الحرب ، كما صورته لنا الوجودية ؟

يعيش في حلقة الخوف واليأس وكما يصفه « مونييه » بانه انسان متهافت غير متين ، لان معتقداته مغامرة ، ومؤسساته العقلية غير ثابتة ، والعالم من حوله صامت لا يقول شيئا والموجودات غارقة في الوحدة ، والعدم يصاحب كل شيء ، ينظر الى الناس من حوله على انهم اشياء ، ويتوهم انهم ينظرون اليه على انه شيء ، لانهم سرقوا حريته فرفض معهم كل تواصل . ام تمثلون في مجتمعكم ذلك الانسان البورجوازي صاحب الشراسة المبتسمة (لنفس الكاتب) . ذلك الذي يعتبر ان الفضائل الاخلاقية تنحصر في كثرة المطالب والجشع وعدم الاهتمام بالغير ، لان محبة المال قد التهمت عنده كل الفضائل الاخرى وحلت عنده قيم الرخاء والبذخ رأس درجات السلم . لا يسمع نداءات الاخرين لانه لا يرى من التعاسة الا تعاسة الشخصية . ذلك الانسان الذي نشأ في رجل المال ثم امتد الى التاجر والفلاح والعامل والصانع وساكن القرية وترك اثره في كل الطبقات ظاهرا كالسيول المدمرة ؟

لا تنزعجوا ، هذا هو نفس الانسان الذي وصفه ابن خلدون عندنا قبل ان يحكم علينا الاستعمار الحديث بالفقر العام .
كلا انكم لا تمثلون هذه القيم النافصة ـ ولا هذا المجتمع الكافر بالانسان ـ لانكم انتم الذين تصيحون فيه ليستيقظ . وتتعرضون للتيار فلا يجرفكم ، ولكنكم لا تستطيعون ايقافه . كما لا نستطيع نحن ان نشعل النار في الرماد .

لقد استولى على مجتمعنا الاموات كما يقول (أوغست كونت) . واستولت على مجتمعكم فردية الآلة . واننا لو نستمع واياكم لما نقوله لنا روح الاستسلام لوجدنا انفسنا في جمهورية أفلاطون ، جموع العبيد فيها اكثر من الاحرار ، وعبيد اليوم هم الجماهير التي لا تشعر بشقائها. والاحرار فيها هم من يملكون الاساطيل والبنوك والمراقص ، وينفقون في ليلة على شهواتهم ما يعيل اسرا باكملها طيلة عام عندنا ، ولكنهم هم ايضا ليسوا احرارا لانهم مملوكون لما يملكون ، ان اغلال عبودية العالم اليوم اصبحت مرة اخرى اغلالا نفسية ، لان الجشع الذي تحكم في كل الطبقات اصبح هو مركز الرحى في العالم المعاصر .

هذا هو الاله العنيد الذي ثار عليه سقراط ، المسيح ومحمد ، وثار عليه نيتشه ماركس وغاندي وروسكين وكروتشي ومونييه .

اننا نقرأ وصفا لمجتمعكم (REICH) فنجدكم مجتمعا يعمل على نشر اخلاق المتعة ، والهدف عنده هو استفزاز شهوة الاستهلاك من اجل الازدهار الاقتصادي .

اما العمل في حد ذاته فليس الا حلقة فراغ بين سلسلة اللذات ، هو وقت تغيب عنه الحياة . مجتمع مدلل لا يعجبه شيء ، ولا شيء في نظره جميل ، همه ان يشكو باستمرار وهو جالس في حلقة دائرة تحيط به القابه البراقه ، التي خيبت آماله .

ونقرأ عنكم (بودمير) الالماني فنجد مجتمعكم عنده اصبح يكثر من استعمال التقنية الصيدلية ليواجه مشاكل الحياة الحديثة واتعابها اصبح لا يعتمد على مقاومته الطبيعية ، وانما يصنع وسائل هذه المقاومة ضد ما صنعه من وسائل المتاعب والتعقيد ، وهو نوع من الضعف العضوي الذي جعل الناس يحسون باي ألم على انه مصيبة عظمى تفسد مزاجهم ، وتجعلهم في حالة توتر دائم تشبه حالتهم وهم يسوقون السيارة .. لقد اصبح كل واحد يساق الى عملية التقدم الصناعي بدون شفقة دون ان يتصور ماذا يحقق من وراء عمله ، انهم مطالبون دائما بالتلاؤم مع ما يظهر من جديد في عالم التكنولوجيا ، وعندما يشعر بالحاجة الى الروح يصنع لنفسه روحا بالمواد الكيمياوية .

ان التقدم الصناعي لا بد ان يدفع ثمنه بالانحدار الانساني وفقدان الاسس الاخلاقية . وعالم التكنولوجيا ـ ولعل هذا قد بدا فعلا ـ هو الذي ينحدر منه الانسان الى العالم البدائي .

ونفس النظرة نجدها عند (فولكوف) الروسي ، وان كان يعزو اسبابها لا الى التقدم العلمي والتكنولوجي ، بل الى نوعية العلاقات الاجتماعية في المجتمع الرأسمالي .

ولكن ما يهمنا من كل ذلك هو ان مجتمعكم ، على ما نفهم ، مصاب بامراض الشبع . الشبع بكل انواعه وفي مختلف ميادينه المعاشية ، كما يسميها ابن خلدون عندنا . شبع في المآكل والملبس والعلاقات الجنسية ، والعمل والتثقف والحروب والغربة والضياع ، انتم مصابون بامراض الحياة المكثفة القصيرة التي يفضلها ابن سينا عندنا على الحياة الفارغة الطويلة ، هذه الحياة الفارغة الطويلة التي يعانيها مجتمعنا نحن ، حياة الجوع بكل انواعه ومختلف اشكاله وميادينه المعاشية : الجوع في المآكل والملبس والتثقف ، وكل ضروب المتعة الفكرية والمادية . هناك شيء واحد يتميز به مجتمعنا عن مجتمعكم وغذاؤه منه أوفر ، وهو غذاء الطمانينة والراحة والايمان والرضى الابله يقابله ما يسميه (فولكوف) عندكم بضياع معنى الحياة وفقدان الايمان باي شيء وعدم الثقة في اي شيء .

وما عندنا وما عندكم في كلا المجتمعين لا نقره جميعا ، ونستنكره ونحاربه ، كل في ميدانه وبالسلاح الذي توفر له ، ولكن ما نلاحظه هو ان صياحكم ضائع في ضجيج الالة ، وصياحنا ضائع في سكون الصحراء ، ولفاؤنا اليوم وحوارنا اذا كان فيه ما يجمعنا حقا ، فهو هذا التضامن بيننا ، تضامن الضائعين الغرباء في مجتمعات فقدت توازنها . وفقدان التوازن فيها هو ايضا ما يجمع بيننا لان امراض الشبع في مجتمعكم ناتجة عن امراض الجوع في مجتمعنا . اننا لا نقصد من هذا ان تعملوا على ان يتنازل مجتمعكم عن بعض ما عنده لمجتمعنا ، فنحن هنا نؤمن برأي (تيبورماند) بان مساعدات الدول المتقدمة للدول المتخلفة هي العرقلة الاولى امام الدول المتخلفة ، لتتغلب على مصاعبها . ويؤمن الواعون منا بمبدأ الاعتماد على النفس ولا نرضي بان يأكل البطال الكسول عندنا ثمرة العامل الكادح عندكم ، وان بقي بعض المسؤولين في العالم الثالث يمدون ايديهم ! ولكن ما نطلبه ، وما نعتبره حقا مقدسا هو مبدأ الاحترام . واعتقد شخصيا ان هذا اللقاء بيننا وبينكم قائم على هذا المبدأ اكثر من اي شيء اخر : مبدأ الاحترام وتبادل المعارف والتجربة الانسانية ، اننا في الوقت الحاضر لا نصنع ما نتبادل به واياكم ولكننا نملك من تراثنا ما يفيدكم ان تطلعوا عليه . ولا تظنوا ان الحضارة الحديثة قد حوت كل الحقيقة ، وان ما قبلها من حضارات قديمة لم تعرف الا الخطأ .

ان ما نعمله في مجتمعنا نحن ، عن وعي وعن غير وعي ، هو تمجيد القيم التي قامت عليها حضارتكم ، ننشر هذا في محيطنا الراكد المتخلف ونعلمه لاطفالنا في المدارس ، ولكننا لا ندري بعد اذا كنتم تقومون في مجتمعكم بمثل هذا التمجيد للقيم التي قامت عليها حضاراتنا وتجاربنا الغنية في الحياة الانسانية . ونحب ان نعتقد ان هذا الملتقى

في أدغال المدن

نخبي في دغل المدن الرعد ، نقتسم القطرات
الاخيرة في القدح المتواطيء ، تلقي الرياح
الشريدة اوراقها فوق اكتافنا في عواصم
منهكة الخصر ، آن التوقف عند الجذور المجعدة
الوجه ، آن التوحد باللهب المتطاول ، في منزل
منزو تحت اجنحة النخل والطير ادركنا الفجر
نكتب آخر لافتة ، في الظهيرة تثقبها فوق
اوجهنا الطلقات السريعة ، يخفي انتظاراتنا
في القرى القنّب ، الارض يابسة والنهير
الجنوبيّ تلفو المباذل عن جانبيه ، تخوّض
في مائه الطحلبي الضفادع والصبية الصفر ،
منتفخ البطن يحلم في زهر البط طفل المناقع ،
آن التوقف عند الجذور المعراة ، ايتها العشبة
الارض يابسة والملوك المباعون في بهو هيلتون
يقتسمون الخرائط ، تلقي الرياح الشريدة
اوراقها فوق اكتافنا ، في الغبار الصليبي
تطفو الحقائب محشوة بالقنابل ، آن التوحد
باللهب المتطاول ، في اي منقعة اورق الرزّ ؟
(ابصرتُ سيقانه الخضرَ
في غبرة الكتب تعلو وابخرة
الشاي تغمر أوجهنا ..)

يشحذون الخناجر في بهو
هيلتون ، في اي محكمة
يوقفونك متشحا بالدخان الجنوبي
(ازرق يفترّ عن وجهه
الرزّ في غبرة الكتب).
في اي حفل تلفت طفل المناقع منتفخ البطن
يسأل عن زهر البط ؟ أوقفت آنسة
الخصل الليلكية معتذرا دون ان تكمل الرقصة
المستفزة ، هل ابصرت وجه طفل المناقع
متشحا بالدخان الجنوبي آنسة الخصل الليلكية
في العشبة الارض تخفق ، ايتها الكلمات اخرجي
من ملاجئك الحجرية شعثاء ، ملتفة بالجذور
المعراة ، يفمر اقدامك الطين ، في اي منقعة
أورقَ الرزّ ؟
(ابصرتُ سيقانه الخضرَ
في قاعة الرقص تعلو ،
وتطفو معى في السرير المؤجر)
ايتها الكلمات المقرّحة الجلد ادركنا الفجر
نقتسم القطرات الاخيرة في القدح المتواطيء .

بغداد

حسب الشيخ جعفر

الذي دعوتمونا اليه مشكورين ، هو حركة من هذا العمل ، تريدون ان تتعرفوا من خلالها على تجربة امم اخرى في الحياة غير تجربتكم . لا لتستفيد السياسة عندكم من هذه المعرفة شيئا ، لنفسها ، بل لتساعدكم في عملية انقاذ مجتمعكم . ونحن نستجيب لهذا اللقاء ايضا لاننا واثقون ان تجربتنا مهما كانت ثرية فهي لا تغنينا عن معرفة تجربتكم بخيرها وشرها . لان كل حضارة شرها جزء من خيرها .

ان التضامن الذي يجب ان يقوم بيننا نحن المثقفين من ابناء المجتمعات المتخلفة ، وبينكم انتم المثقفين ابناء المجتمعات المتقدمة هو تضامن لنفس المعركة . هذا التضامن اصبح ضروريا لان المثقفين في العالم اليوم سواء منه العالم المتخلف او المتقدم ، اصبحوا اخف وزنا في مجتمعاتهم مما كان عليه سابقوهم في المجتمعات القديمة ، في الوقت الذي ندعي فيه بان عصرنا هو عصر العلم والتكنولوجيا والثقافة ولكن المثقفين فيه لا يؤثرون في توجيهه بقدر ما يستغلهم رجال السياسة والاقتصاد والحروب في تحريف الحياة الاجتماعية عن قيمها العليا .

لقد انقسموا طائفتين متناطحتين : طائفة تعيش بالمثل والكتب وتجهل الحياة الصاخبة ، وطائفة انتهازية تبيع ثقافتها كما تباع كل السلع في الاسواق ، وتنتج حسب الطلب المستعجل الآني ، انتاجا نسي مشكلة القيم ولم تطرح امامه .

واذا اردنا ان ننقذ مجتمعاتنا المتقدمة والمتخلفة على السواء فيجب ان نجدد نداء ماركس ولكن الى المثقفين ، يا مثقفي العالم اتحدوا !

ان السياسيين اليوم على المستوى العالمي تجمعهم مصلحة استغلال الشعوب . والاقتصاديين تجمعهم مصلحة استغلال الطبيعة والامخاخ البشرية .

ولكن الاجماع بين هؤلاء واولئك تنخره المتناقضات التي تنشا دائما عن المصلحة المادية وتنافسها ، اما المثقفون فعندما يتحدون على المستوى العالمي ومن اجل خوض معركة الانسان وسعادته ، فانهم لا توجد بينهم متناقضات لانهم لا يتنافسون من اجل مصلحة مادية وهذه هي قوتهم ، ولكنهم لم يشعروا بها بعد .

ان المهمة الاولى في تكوين الكتلة التاريخية الجديدة ، المهمة الحاسمة بالنسبة للمستقبل ، هي اتحاد قوى العمل والثقافة ، تحالف اليد والفكر على المستوى العالمي .

ولكي ياتي هذا التحالف بثمرته المنعشة لكل شعوب العالم ، فيجب ان يكون فيه المثقفون على مقربة في حياتهم من قوى العمل ، وتكون قوى العمل ذات مستوى ثقافي .

هذا ما فعله (سقراط) فحكم عليه بالاعدام من السياسيين . وهذا ما حاول الاسكندر الاكبر ان يمنع ارسطو من القيام به . وهذا ما فعله المسيح فانتشرت دعوته بتضحية قوى العمل الفقيرة . وهذا ما فعله (محمد) الذي كان يقول اللهم احيني مع الفقراء وامتني مع الفقراء وابعثني يوم القيامة مع الفقراء .

هؤلاء الفقراء هم الذين يتكون منهم اليوم مجتمعكم المفتقر الى الايمان والقناعة والقيم الخلقية . ويتكون منهم مجتمعنا المفتقر الى الخبز والكتاب والنشاط .

وكل هذا يتطلب منا نحن ان نتحرر من عقدنا وتحرزنا منكم ، ويتطلب منكم انتم ان تحذروا من ان يستخدمكم السياسيون والتجار لرواج بضائعهم باشهار ثقافي .

عبد الله شريط

استاذ في جامعة الجزائر